مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٥) العدد (٤)
الإصدار السابع عشر
(٢١٤-٢٠٤) ٢٠٢٢

قراءة في تلقي النصوص الإصلاحية بالمغرب كتاب أصحاب السفينة لابن المؤقت المراكشي – نموذجا –

الدكتور عبد العزيز ابايا
باحث من المغرب

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٢٤ ديسمبر ٢٠٢٢م

الملخص

سأحاول في هذا البحث تحديد مستويات التلقي في كتاب " أصحاب السفينة " لابن المؤقت المراكشي، كمتن إصلاحي ذي أهمية بالغة في العصر الحديث مع محاولة وضع المؤلَف وصاحبه ضمن السياق التاريخي. كما سأتطرق إلى عملية التلقي والتأويل على مستوى النص الإصلاحي من خلال وصفه للظواهر المجتمعية ومحاولة نقلها للقارئ المتلقي الذي سيتلقاه بطريقته ويحاول إعادة قراءته وتأويله انطلاقا من زاويته ورؤيته لهذا العالم. استنادا إلى ما سبق، سأحاول الإجابة على الأسئلة التالية: – كيف تلقى ابن المؤقت الظواهر الاجتماعية التي كان يعيشها؟ – ما أنواع الخطاب الذي استعملها لإرسال رسائله الإصلاحية؟ – ما هي مستويات تلقي تلك النصوص الإصلاحية ومدى التفاعل معها؟ هذه بعض الأسئلة التي يحاول البحث الإجابة عليها.

الكلمات المفتاحية: أدب، الإصلاح، ابن المؤقت، التلقي

*** مقدمة**

لقد شكلت الحال المتردية التي وصلها المغرب أيام ابن المؤقت محفزا لكي يتصدى للانحرافات التي رآها عائقة لتطور الأمة، وهو في ذلك يهدف إلى:-

١- تحقيق أسباب التطور ومضاهاة الأمم المتقدمة.

٢- إرجاع الأمة إلى سابق عهدها من التشبث بالشرع.

وهكذا يقول في الكشف والتبيان: "قد عن لي أن أشرح بعض البعض من أخلاق أهل هذا العصر، وأن أشير لبعض ما عليه غالب الناس في كل مصر، ليتخلى الموقف عن تلك الرذائل، التي يتعين اجتنابها، ويتحلى بالفضائل التي يجب التزامها، فعسى الله أن تتبدل هذه الأحوال وتنشأ نشأة أخرى تتبعا للمشرع في الأفعال والأقوال"[1].

[1] - الكشف و التبيان ص 2

يظهر هدف المؤلف من كتاباته الإصلاحية من خلال قوله "فعسى الله أن تتبدل...إلخ" فهو هدف تطهيري يتوخى استبدال وضع يسوده الفساد والانحراف بوضع آخر تسوده مبادئ الشرع فتكون الفيصل في معاملات الناس الاجتماعية.

ونتساءل هنا عن أوصاف الزمان الذي عايشه ابن المؤقت والذي وضعه كأرضية انطلق منها لتأسيس خطابه الإصلاحي يقول: "زمن اتباع الأهواء وإضاعة الصلاة والأمانات واستحلال الكبائر وأكل الربا والرشا وبيع الدين بالدنيا وتشييد البناءات. زمن اكتناز الأموال واستلاب الحقوق وابتزاز الدراهم من دماء الأرامل والأيام وانتزاع الأقوات من أفواه الأطفال واليتامى. زمن استحلال لبس الحرير والذهب والتهاون بجميع أسباب العطب. زمن صارت فيه الزكاة مغرما والأمانة مغنما زمن صار فيه المطر قيظا والولد غيظا. زمن صارت فيه الأمراء فجرة والوزراء كذبة والأمناء خونة والعرفاء ظلمة والقراء فسقة. زمن نشأ فيه الجور والزنا واللواط والأيمان الحانثة والفاجرة والخيانة والكذب والمكر والخديعة وجميع أسباب الانحطاط. زمن الفسوق والطغيان وكفران النعم والظلم والعدوان وأكل أموال الناس بالباطل وشهادة الزور والبهتان. زمن استحلال المعازف والمزامير وشرب الخمور واتخاذ القينات زمن المكس والمسخ والخسف والقذف وجميع الآفات. زمن تعطيل الحدود ونقض المواثيق والعهود. زمن بيع الأحرار وارتكاب الكبائر والإصرار. زمن تشبهت فيه النساء بالرجال والرجال بالنساء حتى شاركت المرأة زوجها في التجارة وباء الجميع بالغبن والخسارة. زمن العقوق وتضييع الحقوق. زمن قطعت فيه الأرحام ومنعت فيه المحاويج والأيتام. زمن تطفيف الميكال والوزن. زمن الترح والغم والحزن. زمن تسلط أعداء الدين بسلب الأموال والأوطان واستعباد الرقاب وتخريب الديار وارتفاع الأسعار"[2]

أما عن حال أهل زمانه فيقول عنهم: "غالب الإخوان في هذا الزمان مسلوب الإنسانية. وإن كان في زي الإنسان، من أحسنت إليه أساء، ومن ترفقت له قسا، ومن نفعته ضرك، ومن أمنته غرك... وبالجملة فقل ما شئت في أهل الزمان، وقديما قالوا: لم يبق من الناس إلا كلب نابح، أو حمار رامح، أو أخ فاضح" [3]

كما كشف عن معاملات بعض معاصريه في قوله: "إن كان غنيا أجمعت حوله القلوب الضاغنة، واصطلحت عليه الأيادي الناهبة، فإما قتلته وإما أفقرته.

وإن كان فقيرا عد الناس فقره ذنبا جنته يداه، فتناولته الأكف بالصفع، والأرجل بالركل، والألسنة بالقذف حتى يموت الموتة الكبرى بعد أن مات الموتة الصغرى.

وإن كان عالما ولع الحاسدون بذمه وهجوه، وتفننوا في تشويه سمعته، وتسويد صحيفته ولا يزالون به حتى يعطيهم العهود والمواثيق التي يرضونها أن يعيش عالما كجاهل وحيا كميت، وأن يكتم علمه في صدره فلا يفضي به إلى لسان ولا قلم حتى يدركه الموت.

وإن كان جاهلا اتخذه العالمون مطية يركبونها إلى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يهادونها ولا يرفقون بها حتى يعقروها.

[2] - المصدر السابق ص 3

[3] -نفسه ص ص 6-7

وإن كان بخيلا ازدرته القلوب واقتحمته العيون وتقلصت له الشفاه وبرزت له الأنياب وانقبضت له الأسرة والتهبت له الأنظار وأرسلت إليه الأضغان [4]ألسنة نيرانها حتى تحرقه.

وإن كان كريما محسنا عاش مترقبا في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن إليهم، إما لأنه أذاقهم جرعة باردة فاستعذبوها فاستزادوه، فلم يفعل فهم ينتقمون منه أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يخيل إليهم أن المحسن يريد أن يشتري منهم نفسه بما يسديه وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الإحسان بلا مقابل، فهم ينقمون عليه إن عرف كيف يفلت من أيديهم" [5]

يتأسس مفهوم الإصلاح عند ابن المؤقت على تمثل مبادئ في المعاملات الإدارية والاجتماعية والأخلاقية يتحقق بها الإصلاح الذي يرومه، وهو إصلاح شرعي يركن إلى الدين بالكلية، فلا يكون الإصلاح تاما وحقيقيا إلا إذا كانت آلياته الإجرائية وأهدافه العامة مقصودة لدى الشريعة، وهكذا فهو يحدد في نصوصه السابقة كل ما يعد (لا شرعيا) في حياة معاصريه، واعتمادا على هذا التحديد تتكون لديه صورة الحياة العامة التي يعيشها أهل زمانه، وهذا ما يفسر إيراده لعدد من الأحاديث الشريفة ينبئ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ما سيصيب الأمة من فتنة وشرور، مثل قوله صلى الله عليه وسلم (يأتي على الناس زمان يقال للرجل ما أظرفه، ما أعقله، ما أجلده، وما في قلبه من الإيمان ما يوزن بخردلة) ، وكقوله عليه الصلاة والسلام (يأتي على الناس زمان يذوب قلب المؤن في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر ولا يستطيع تغييره) ، ويحرص مع نهاية بعض الأحاديث على أن يعلق بقوله : "وهذا هو الزمان المحدث عنه" [6]

تتلخص الانحرافات التي أوردها ابن المؤقت في نصوصه السابقة فيما يلي: – انحرافات إدارية – اجتماعية – أخلاقية، وهو ما يفرض الوقوف عند كل منها، مع مراعاة الإجابة على الإشكالات التالية:-

١-كيف كان المجتمع المغربي إبان كتابة ابن المؤقت لمتنه الإصلاحي، وما هي الصورة المنطبعة في ذهنه عن هذا المجتمع؟

٢- ما مدى مصداقية هذه الصورة التي نقلها لنا الرجل، وهل كانت واقعا ملموسا أم مجموعة من الانطباعات المبالغ فيها مما يمكن أن يكون انعكاسا لظروف شخصية ونفسية ترسخت لديه مع احتكاكه بخاصة الناس وعامتهم؟

*** ابن المؤقت: الشخصية اللغز**

إن تراث ابن المؤقت يعتبر بحق خير معبر عن حالة المغرب الاجتماعية والفكرية، كما أنه مرآة لنفسية كاتبه نفسه، فهي تخبر بما أعطيت من وضوح ومباشرة متنا غنيا لمن أراد استكناه هذه الشخصية. ومن خلال قراءة الدكتور حسن جلاب تبين أن الرجل مر بثلاث مراحل في حياته[7]:-

١- مرحلة التصوف: تميزت باتجاهه الصوفي المحض، متأثرا بنشأته في جو أسري مغلق، وبخاصة والده الذي كان من كبار المتصوفة بمراكش. وتنفست هذه الفترة عن مؤلفات "كالسعادة الأبدية " و" معارج المنى والأماني و" تعطير الأنفاس

[4] - الأضغان: ج ضغن: الحقد.
[5] - الكشف و التبيان، ص ص: 9-10
[6] - المصدر السابق ص : 7
[7] - انظر مقال " الدعوة إلى إصلاح المجتمع" ص ص:426-427

في التعريف بالشيخ أبي العباس " و" مجموعة الورد العام لجميع طوائف الإسلام. "[8]، و" الرحمة العامة في مولد خير الأمة"[9]. واستمرت هذه المرحلة إلى سنة 1927 م، وهو التاريخ الذي ألف فيه " الانبساط في تلخيص الاغتباط "[10]. والذي يضم طائفة من أخبار المتصوفة المعاصرين مختصرة من كتاب ‘‘الاغتباط" لبوجندار.

٢- مرحلة الصحو: وتبدأ مباشرة بعد انقلابه على شيخه، وما جاء بعدها من ترقب ورصد للظواهر الاجتماعية الفاسدة. وكانت مؤلفاته في هذه المرحلة رد فعل تلقائي لما جرى له مع شيخه الذي جعله مثالا للمتمشيخ الدجال، فكان هجومه الذي ظهر في " الرحلة " و " الكشف " لم يمنعه في نفس الوقت من تأليف كتب تتضمن أحاديث نبوية مثل: " لبانة القارئ لصحيح البخاري "[11]و " بغية كل مسلم من صحيح مسلم "[12] وقد جمع هذا الأخير سنة 1928م، أي سنة بعد تلخيصه " للاغتباط " مما يجعلنا نزعم بأن أزمة ابن المؤقت مع شيخه والتصوف عموما قد اندلعت بين سنتي: 1927- 1928 ومن المرجح أيضا أن يكون قد ألف كتاب " هدم المباني " في هذه المرحلة.

٣- مرحلة السلفية الجديدة: وتتميز بتأليفه " للجيوش الجرارة " سنة 1937، الذي كان تأثره فيه بالشيخ محمد عبده واضحا، ومن هنا – على الأرجح – يبدأ تأثره بالسلفية الجديدة التي ظهرت في المشرق. ويستمر متأثرا بها إلى سنة 1945 م، وهو التاريخ الذي ألف فيه: " فتح الكبير المتعالي على قول الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي " [13] و" إرشاد ذوي النباهة والاعتبار، لاستدراك ما فاتهم من الأعمال الصالحة بعد انقراض الأربعين سنة من الأعمار " [14] و " الرحلة ‘‘، وهو أيضا التاريخ الذي انقطع فيه ابن المؤقت عن التأليف، إلى أن طلع على الناس بتنبئه الغريب قبل وفاته سنة 1949م.

إن المتأمل في مؤلفات ابن المؤقت، وبخاصة التي تهم المرحلة الثانية والثالثة من حياته، سيلاحظ بلا شك أن الرجل:-

أ- بلغ ذروة نقده للمجتمع بين سنتي 1929 و1931 م.

ب- انتقل من سلفية قديمة في "الرحلة " إلى سلفية جديدة في " الجيوش ‘‘.

ج- كان قوة معارضة ضد الفكر الطرقي الذي كان مؤسسة اجتماعية وسياسية عتيدة، الشيء الذي نتج عنه تألب العلماء وشيوخ الطرقية عليه، وتأففهم من أسلوبه الجارح.

*** كتاب أصحاب السفينة ومستويات تلقيه**

يندرج تأليف ابن المؤقت لأصحاب السفينة في إطار وعي ابن المؤقت المراكشي بضرورة التغيير الذي سيخرج الأمة من حالتها المتردية، وهي من حيث المقصد والشكل تعتبر شبه تكملة لما بدأه ابن المؤقت في كتاب "الرحلة" ، مستتبعا أسلوبه في توعد من اعتبرهم «متخبطين في دياجير »الجهالة والتأخر،

[8] - مطبعة البابي الحلبي ، مصر : 1955 م
[9] - مطبعة البابي الحلبي ، مصر : 1341هـ
[10] - نفس المطبعة ، مصر 1347 هـ
[11] - المكتبة الشعبية ، 1399 هـ
[12] - نفس المطبعة ، بيروت : د.ت
[13] - المطبعة العصرية ، فاس : 1365
[14] - ذكر في آخر كتاب : فتح الكبير المتعال

هائمين في العسف والذل، محذرا من عاقبة التمادي في ذلك ، يقول د. حسن جلاب، "...ألفها – يعني أصحاب السفينة – في ذم الزمان ووعظ أهله ودعوتهم إلى العدل والإيمان، وكتبه على شكل رواية ملخصها أن جماعة من الناس يبحرون في سفينة أكثرهم من الكفار وأقلهم من المسلمين تتقاذفهم الأمواج والمخاطر، فليس لهم من وسيلة للنجاة إلا بالإيمان. وقد تعرضوا لثلاثة إنذارات كان الأخير منها سبب هلاكهم إلا طائفة قليلة التجأت إلى جزيرة آمنة لتكون مجتمعا جديدا صالحا"[15].

كما أنها تكملة لذلك الخطاب المتخيل الذي احتفل به ابن المؤقت كثيرا في كتاباته الإصلاحية، حيث نجد أن هذا النص يأتي واسطة عقد بين رحلتين متخيلتين هما: الرحلة المراكشية، والرحلة الأخروية " [16]. التي ألفها في تصوير أحوال القيامة، وعلاقة الإنسان المسلم بقوى الشر والخير. وكأن المؤلف يسعى بذلك إلى إنضاج فكر إصلاحي معين لدى القارئ يتأسس على سيرورة كرونولوجية تنحو المنحى التالي:-

١- رصد مظاهر الداء الذي ينخر جسد الأمة الإسلامية، وتحديد أنماطه وتعطيل مسبباته (الرحلة المراكشية).

٢- توعد من يعملون على تفشي هذا الداء وإنذارهم بشتى العواقب الأرضية والسماوية (أصحاب السفينة).

٣- تتبع من كان ينذرهم بعد الموت، وشرح أحوالهم يوم القيامة والعذاب الشديد الذي سيلاقونه (الرحلة الأخروية)

وهو بهذا المعنى أعطى للأسلوب الإصلاحي بالمغرب نفسا آخر يخالف فيه الأسلوب التقريري المعتاد.

يقع كتاب "أصحاب السفينة" في 72صفحة من القطع الصغير، صادف إتمام المؤلف له عشية يوم عرفة تاسع ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية، الموافق ل 1935م، بعد سنتين تقريبا من تأليفه للرحلة المراكشية، وتأتي أهمية دراسته من عدة اعتبارات نذكر منها:-

١- تميزه بطابع خيالي ملفت مكن من إلقاء إضاءة متميزة على المجتمع ومرحلته، وكذا تطور نظرة ابن المؤقت له بعد تأليفه للرحلة، وهو تطور شمل الأسلوب الحكائي السردي الذي ارتضاه الكاتب لهذا المؤلف، من حيث البناء السردي وتسلسل الأحداث وتناغمها مع النتائج (العواقب).

٢- طغيان الأسلوب الإصلاحي، ونجده غالبا مؤطرا ببناء وصفي تقريري يحدد بجلاء ما يجب إصلاحه ومن هم في حاجة إلى الإصلاح.

٣- نظرة ابن المؤقت لحال المجتمع وتأكيد استحالة إصلاح من هم مسؤولين عنه رغم بذل النصح لهم مما وفر له إمكانية الحكم عليه بالانتهاء والاندثار، يقول في هذا الإطار:"... ولما رأينا منهم ما رأينا اعتزلناهم بناحية هناك، واشتغل كل منا بشؤون نفسه، وعلمنا أن هذا الزمان زمان نفاق ومكر وخديعة فكل من يريد أن يعيش محبوبا عند هؤلاء الأوباش لابد أن يكون موافقا لهم في تلك الأوحال، في الحال والمآل،

[15] - الدعوة إلى إصلاح المجتمع " ص: 427

[16] - الرحلة الأخروية أو المقالة الباهرة في كشف الغطاء من أسرار الآخرة. المطبعة العصرية بفاس . 1945 م / 1365 هـ

وجزمنا بفساد نيات أهله، وخبث نفوسهم، وسواد قلوبهم ومرض ضمائرهم..."[17]

٤- إضاءة مرحلة مهمة من حياة ابن المؤقت وشخصيته بعد تأليفه للرحلة، حيث نص على بعض المضايقات التي تلت تأليفه للرحلة، يقول في ذلك على لسان عبد القوي-وهو أحد شخصيات الرحلة-:".. وقد بلغنا ما قاسيته منهم في شأن كتابك "الرحلة المراكشية" حتى قاموا عليك وقعدوا واهتزوا لأهوالها المترادفة وأعمالها المتتابعة، وغضبوا واشتدوا وسخطوا واحتجوا وبهتوا، وما أتى ذلك بفائدة مرجوحة أو نتيجة حاسمة."[18]

*** مضامين كتاب أصحاب السفينة**

تتوزع مضامين الكتاب حسب توالي الأحداث التي تجري في القصة، على الشكل التالي:-

١- افتتاح، *يحتوي على الأحداث التالية*:-

أ- سفر المؤلف من أجل البحث عمن يبحث عنهم من رجال صالحين، أو كما سماهم، أصحاب جمعية الصواعق السماوية.

ب- ظفره بمن يبحث عنهم، وتبادل الحديث حول مؤلف "الرحلة"، وما خلفه من ردود أفعال، وعزمهم على السفر من أجل إصلاح الحال.

٢- مقصد يتضمن وصفا عاما للسفينة من حيث:-

أ- التقنيات الحديثة المستعملة في السفينة

ب- اضطراب أهلها سياسيا واقتصاديا بسبب تعدد الرؤساء واستقلالهم بالأمر

ج- مقارنة أحوال المسلمين والغربيين في الأخذ بأسباب الحضارة

د- ذكر صنوف الناس على السفينة وأحوالهم تبعا للوضع الاجتماعي

هـ- التأكيد على بعض الخطوات التي يتعين على رئيس السفينة اتباعها للرقي بالسفينة

و- التنصيص على فساد المتصوفة وذكر بعض من أحوالهم؛ طبقة العلماء ودورهم في فساد أخلاق الأمة

ز- أصحاب الرئاسة والمناصب واستشراء الفساد.

٣- الإنذارات المتتالية

أ- اصطدام السفينة بجبل ثلجي صدع جوانبها وملأها بالماء، وما أعقب ذلك من هلع وخوف لدى الركاب.

ب- تعرض السفينة لعاصفة بحرية مهولة مع نزول أشخاص عظام يرمون أهل السفينة بالصواعق مع ريح مهلكة.

ج- هبوب ريح واشتداد الرعد والبرق واسوداد الأفق وتعرض السفينة للحرق وتحطمها رغم توبة من كان فيها من العصاة والظلمة.

في الأخير ختم ابن المؤقت كتابه بالصلاة على النبي مع الإشارة إلى وقت الفراغ من تأليفه.

*** مستويات التلقي**

لقد أتاح الانفتاح الثقافي على الغرب منذ مطلع القرن الماضي فرصة للنخب المثقفة بالعالم العربي للاطلاع على المستوى الذي وصله البحث العلمي في مجال النقد الأدبي واللساني بدءا بالاستفادة من المناهج الوظيفية بما فيها التاريخي والنفسي والاجتماعي، وانتهاء بتطبيقات النقاد العرب المستقاة من المدرسة البنيوية في النصف الأول من القرن العشرين.

[17] - أصحاب السفينة ، ص :58

[18] - المصدر السابق. ص :9

و تأتي نظرية التلقي أو كما يحلو للبعض تسميتها " نظرية التأثير و التقبل" في سياق التأثر الذي طبع علاقة النقاد العرب بنظرائهم الغربيين منذ تبلورها على يد فولكانك إيزر wolfgang iser في أواسط الستينيات ، و تعد إلى حد ما ثورة على المناهج النقدية التي احتفل بعضها بالبيوغرافيا على حساب النص ، و البعض الآخر ببنيات النص على حساب الظروف المحيطة به، وذلك في أفق إعادة الاعتبار للثنائية الأهم في الفعل الإبداعي و هي : النص الأدبي، و من وراءه المبدع بتناصياته من جهة ، و المتلقي أو القارئ و ما يستند إليه من منظومة تأويلية من جهة أخرى.

وفي قراءة سريعة مستنبطة من مجهودات إيزر فقد قرر هذا الأخير بأن النص الأدبي لا يمكن أن يسمى كذلك إلا إذا تحققت فيه ميزتان:-

١- ميزة فنية: يعمل المبدع على إظهارها بكل الوسائل والتيمات والبهارات اللغوية.

٢- ميزة جمالية: ولا تتحقق إلا بخروج النص إلى الوجود وخلق تفاعل بين القراء عن طريق استخلاص جمالياته وتأويل مضامينه.

إن العتبتين السابقتين وعلى الرغم من كونهما حاسمتين لدى إيزر في القدر الإبداعي للنص إلا أنهما تنطويان على شيء من النسبية، ففنية النص نابعة من مدى قدرة المبدع على قراءة الأعمال السابقة، فيما نسبية الميزة الجمالية تأتي من مدى قدرة المتلقي على استغلال حاسته التأويلية. ومن هنا يأتي التساؤل التالي: هل هناك نصوص مغلقة غير قابلة للقراءة، وأخرى مفتوحة قابلة لذلك، وهل النصوص التي لم يكتب لها أن تؤول و لم تأخذ حظها من العناية هي نصوص لا جمالية فيها؟ سيكون الجواب قطعا بالنفي فنحن واجدون نصوصا أدبية وضعت القارئ في مركز اهتماماتها و أولته عناية خاصة ، بل و نجد أصحاب هذه النصوص يكيفون أنماط القول الأدبي لتحديد نوع من أنواع المتلقي يكون الخطاب موجها إليه بذاته ، و هذا ما لمسناه من خلال كتابات محمد بن محمد بن عبد الله الموقت الأديب و الفقيه المراكشي المتوفى سنة 1949م ، و بخاصة في كتبه الإصلاحية حيث رأيناه يعتني بالقارئ و يوليه اهتماما خاصا من خلال سلسلة تأليفية ابتدأت من سنة 1929م بمؤلف "الكشف و التبيان عن حال أهل الزمان" و انتهت بمؤلف "الرحلة الأخروية" سنة 1945م، مرورا بكتابي "الرحلة المراكشية" و "أصحاب السفينة".

وتعتبر هذه المؤلفات من الدرر العلمية التي صمدت في وجه الضياع المستشري في خزانة المغرب إبان عهد الحماية خاصة وأن صاحبها كان يعتني بطبع ونشر مؤلفاته أولا بأول واعيا بما تعرض له أغلب معاصريه. فجاءت- المؤلفات- لتعين الباحثين المتطلعين لمعرفة الحالة الاجتماعية المعيشة آنذاك وإن بنظرة فقيه محافظ يولي بنظره قبل الماضي متطلعا لمجد دفين افتقد في زمانه.

لم يحظ كتاب "أصحاب السفينة" بما حظي به "الرحلة المراكشية " من اهتمام في أوساط النخبة المثقفة آنذاك، بحيث لم يصلنا في هذا الشأن شيء يذكر، إلا من تعليق نشرته مجلة المغرب الجديد في عمود "بريد المغرب الجديد"، ذكرت فيه:"ووصلنا من الأستاذ محمد بن عبد الله (مؤقت مراكش) كتابه أصحاب السفينة وهذا الكتاب عبارة عن قصة صغيرة يصف فيها ما لاقاه من العنت عقب إصداره

كتاب"الرحلة المراكشية" ونحن مقررون لنشاط الأستاذ المؤقت وصراحته اللاذعة في نقد المجتمع المغربي، فهو بهذا النوع من التأليف ممتاز بين طبقته"[19].

ويظهر أن عدم اهتمام معاصري ابن المؤقت بهذا الكتاب كان لعدة أسباب من بينها:-

١- تشابه مضامينه وأسلوبه السردي مع كتاب الرحلة، مما أفقده مقدارا كبيرا من الجدة والتميز.

٢- محدودية نشره، وندرته في سوق الكتب رغم محاولة ابن المؤقت التسويق له في شتى المنابر الإعلامية، حيث ظل الكتاب الوحيد من كتب الرحلات غير المنشور بالمغرب، مما صعب من توفر المهتمين عليه.

وهذا ما تنبه إليه كل من عبد الله ساعف وألان روسيون اللذان حاولا إخراج الكتاب في حلة جديدة مع محاولة قراءته قراءة شبه تأويلية لم تستنكف ربط الأحداث الخيالية للرحلة مع ما كان يدور من أحداث واقعية إبان كتابة المؤلف ، كما أنها لم تتورع عن الإفصاح عن أهداف جانبية ابتغاها المؤلف من كتابه، يقول الباحثان: "يمكن قراءة هذا النص الوجيز قراءة ننعتها بأنها 'مستقبلية'، إذ مهما قال المؤلف عن نفسه ذلك فإن رهان الكتابة ربما ليس إدانة العالم الذي كان والبكاء على "زمن غابر" اضمحل بل هو تسجيل - يتم عبر هذه الإدانة، وهذا البكاء الذات-كما لو في حفرة- لإطار جديد يمكن العيش فيه من جديد"[20].

وهذا ما أدى بالباحثين إلى استخلاص أن ابن المؤقت كان مستعدا لقبول فكرة وجود الاستعمار كقوة تنظيمية تحمل على عاتقها مهمة تمدين البلاد وترقيتها، وهو المفهوم من قولهما:" إنه - الخطاب الإصلاحي لابن المؤقت - ليس تكرارا للممنوعات بالتشهير، أو ليس ذلك فقط، بل اشهارا للرخص الجديدة وطرق إنجاز الممارسات الجديدة للعالم الآتي كمسلم صالح. وهذا يعني أيضا فيما وراء نهاية العالم التي يعلنها توضيح وضع الوجود الاستعماري، وبالتالي تنظيمه بقبول اقتراحه بأن يؤدي (مهمة تمدينية) من جهة، وبالإفصاح عن شروط حماية مركزية الهوية الدينية المرجعية من تطاول الغير واستسلام الذات"[21].

لقد كان نص أصحاب السفينة حسب عبد الله الساعف وآلان رسيون بمثابة نص "راد للفعل"، يربط المؤلف السارد مشروعه صراحة بالسياق الذي أنتجه فيه، ويتمثل هذا السياق في المتآمرين الذين أوجدهم نشر كتاب أول هو "الرحلة المراكشية". الذي صدر قبل ذلك بسنتين والذي كان ابن المؤقت قد كشف فيه عن "مرآة المساوئ الوقتية" (العنوان الفرعي الأول) وشهر "السيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول" (العنوان الفرعي الثاني)[22]. كما يعتبر تطويرا في طريقة مقاربة ابن المؤقت للفساد المستشري في زمانه، فبينما كانت الرحلة المراكشية تبدو حكاية سفر خيالي في عالم واقعي، يشعر فيه أعيان المدينة بأنهم مهانون شخصيا، تتخذ

[19] - ص: 46 . عدد صادر بتاريخ جمادى الثانية .1354 شتنبر 1935 م

[20] - كتاب " أصحاب السفينة . ص 72 تعليق : عبد الله الساعف وآلان روسيون.مطبعة وليلي . مراكش: 1998.

[21] - نفسه . ص ص : 72-73

[22] - المصدر السابق، ص ص :86-87

كتابة "أصحاب السفينة" الموقف المعكوس الذي يقوم على عدم واقعية الرحلة وهي تدفع الخيال نوعا ما إلى أقصى حدوده. فهو لم يعد سفرا خياليا في حاضرة واقعية، بل هو رحلة يسافر فيها المجتمع نفسه إلى لا مكان".

وقد ذهب الباحثان إلى اعتبار أحداث الكتاب رموزا لتداعيات سياسية واجتماعية تركت صداها في شخصية المؤلف حتى أنه حكاها على شكل أحداث درامية خيالية، حيث ذكرا في هذا الإطار:-

١- اصطدام السفينة بجبل ثلجي يشبه الحادث الذي وقع ل(التيتانيك) في أبريل 1912، وهي السنة التي لها وقع في الذاكرة المغربية، وهو نوع من التلميح الرمزي إلى معاهدة الحماية.

٢ الإنذار الثاني الذي أصاب السفينة والمتمثل في رياح وعواصف ورعود وفوضى في أوساط الركاب ثم الهدوء المفاجئ قد يحيل إلى حرب الريف وما أعقبه من مجازر قبل استسلام عبد الكريم الخطابي سنة 1926م بشكل مفاجئ أيضا.

٣- الإنذار الثالث والمتمثل في غرق السفينة قد يحيل إلى عاصفة العواطف الحقيقية التي هزت المجتمع المغربي على إثر إصدار الظهير البربري في ربيع 1930م، والذي لم يلغ جزئيا إلا عام 1934م، وهي السنة نفسها التي ألف فيها ابن المؤقت "أصحاب السفينة"[23].

وقد لفت كتاب "أصحاب السفينة" انتباه باحث آخر هو أحمد اليبوري، حيث أفرد لها إلى جانب الرحلة المراكشية بحثا حول مفهوم (الآخر) الذي تغلغل في جوهر المجتمع المغربي وشوه تقاليده حيث يرى بأن السفينة لم تكن إلا رمزا للحضارة الغربية التي اكتسحت العالم وفرضت عليه حكمها ونظامها وقيمتها. من جهة أخرى فقد لاحظ الباحث بأن الكتاب يقدم لنا نظرة مزدوجة صرح بها ابن المؤقت حول (الآخر) يقول في ذلك:"... وهكذا فإن السارد بقدر ما كان يحذر من محاكاة الآخر الغربي سابقا، أصبح في وصفه الإيديولوجي للسفينة يعلن من خلال إعجابه واندهاشه عن رغبة كامنة في المحاكاة"[24].

*** الخاتمة**

لقد أراد ابن المؤقت من خلال دينامية أحداث السرد في كتاب أصحاب السفينة أن ينتزع من متلقيه الافتراضيين قارئين كلاهما سيشبعان نهمه في توصيل فكرته الإصلاحية:-

١- قارئ متطهر عرف حمى الباطل فوقف دونه.

٢- قارئ مؤول عليه أن يرى ما تكتنفه الأحداث والأماكن من رموز وإيحاءات فيجد لكل رمز مفتاحا يقربه من ألغاز النص.

إن المتتبع للنتاج الإصلاحي لابن المؤقت يدرك مع قليل من التمعن أن الرجل وضع متلقيه في مركز اهتمامه وذلك بالنظر إلى مؤشرات منها:-

١- خطاب المقدمات و ما تتضمنه من دواعي التأليف، فنجده يقول في مقدمة الكشف و التبيان مثلا: "... قد عن لي أن أشرح بعض البعض من أخلاق هذا العصر، وأن أشير لبعض ما عليه غالب الناس في كل مصر، ليتخلى الموفق عن تلك

[23] - انظر هذه التأويلات . من ص : 86 إلى ص : 90

[24] - الآخر في الرحلة المراكشية . " ص : 7 . ضمن أعمال ندوة " الرحالة العرب والمسلمون"

الرذائل، التي يتعين اجتنابها، ويتحلى بالفضائل التي يجب التزامها، فعسى الله أن تتبدل هذه الأحوال وتنشأ نشأة أخرى تتبعا للمشرع في الأقوال والأفعال".25 فقد نص على سبب التأليف والمتمثل في كثرة الانحرافات التي لاحظها في المجتمع والتي كانت دافعا لتأليف الكتاب، كما نص على أن الهدف المركزي هو المتلقي (أو كما عبر عنه بالموفق) الذي من الضروري أن يقلع عن الرذائل بمجرد قراءته للمؤلف.

٢- توسله بمقومات الخطاب الإقناعي، فنجده يستخدم تلك الأساليب البلاغية وبخاصة الإنشائية التي تحدث أثرا في نفس المتلقي فينتبه إليها بما تمتلكه من وسائل التوكيد والتنبيه. ويعد ابن المؤقت من بين إصلاحيي القرن الماضي الذين أكثروا من استخدام الأساليب الإنشائية، وقد كان اهتمامه بهذا النوع من الأساليب راجعا إلى ما يلي:-

أ- قوتها في إيصال المعنى بطريقة يكون فيها الخطاب موجها إلى نوع محدد من القراء.

ب- استعلاؤها عن مبدأي الإنكار والصدق والكذب، يقول أحمد الهاشمي في ذلك:" الإنشاء لغة: الإيجاد، واصطلاحا: كلام لا يحتمل صدقا ولا كذبا لذاته."26

ج- تنويع الأساليب في إيصال المعنى دفعا لملل المتلقي.

*** المراجع**

ابن المؤقت محمد، إظهار المحامد في التعريف بمولانا الوالد، ط.ح، دون تاريخ.

القباج محمد بن العباس، الأدب العربي في المغرب الأقصى، ط:1، الرباط:1929م.

- ابن المؤقت محمد، معارج المنى والأماني في مناقب القطب الرباني شيخنا ومولانا فتح الله البناني، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: د:3589.

أفاية نور الدين، أسئلة النهضة في المغرب، ضمن منشورات الزمن، يونيو:2000م.

الناصري أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: 1956.

السلمي محمد بن الفاطمي، إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء: 1992م.

ابن المؤقت محمد، أصحاب السفينة أو القرن الرابع عشر، مطبعة البابي الحلبي، مصر:1354هـ/1935م.

ابن المؤقت محمد، الانبساط بتلخيص الاغتباط، مطبعة البابي الحلبي، مصر:1347 هـ. ب

الجراري عبد الله، التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين، مكتبة المعارف –الرباط ط:1، 1406هـ/1985م، منشورات النادي الجراري.

الأزدي عبد الجليل، التحليل النفسي والأدب في النظرية والممارسة، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش:2005م.

المقدسي أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت:1979م.

[25] ص:2.

[26] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ص:74، دار إحياء التراث العربي بيروت: د.ت.

الجراري عباس، تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب، ط:1، الرباط:1997م.

ابن المؤقت محمد، تعطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس، نشر وتقديم وتعليق: ذ. أحمد متفكر. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش:2003

حركات إبراهيم، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء:1994م.

ابن المؤقت محمد، الجيوش الجرارة في كشف الغطاء عن حقائق القوة الجبارة، مطبعة الباب الحلبي، مصر:1356هـ/1937م.

سكيرج أحمد، الحجارة المقتية لكسر مرآة المساوئ الوقتية، المطبعة الجديدة، فاس:1346هـ.

بلقزيز عبد الإله، الخطاب الإصلاحي في المغرب: التكوين والمصادر، دار المنتخب العربي، بيروت:1997م.

جلاب حسن دراسات مغربية في التراث، ط:1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش:1998م.

ابن المؤقت محمد، الرحلة المراكشية ومرآة المساوئ الوقتية، تقديم: د. أحمد الشقيري الديني، ط:3، الدار البيضاء:2000م.

ابن المؤقت محمد، الرحمة العامة في مولد خير الأمة، مطبعة البابي الحلبي، مصر:1341هـ.

ابن المؤقت محمد، رسالة إرشاد أهل السعادة لسلوك نهج كمل السادة مطبعة السعادة، مصر: 1911م.

أبلاغ محمد عبد الجليل، شعرية النص النثري، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء:2002م.

عبد الناصر حسن محمد، نظرية التلقي بيم ياوس وإيزر، دار النهضة العربية، القاهرة 2002م.

اليابوري أحمد، الآخر في الرحلة المراكشية، ضمن ندوة "الرحالة العرب والمسلمون-اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموئلا".

ابايا ادريس، الإصلاح الاجتماعي عند ابن المؤقت المراكشي، الملحق الثقافي لجريدة الميثاق، بتاريخ: 7دجنبر1987م.

جلاب حسن، الدعوة إلى إصلاح المجتمع من خلال الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقتية لابن المؤقت، ضمن ندوة "الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموئلا" ص:428، ط:1، الدار البيضاء: 2003

مؤدن عبد الرحيم، الرحلة الأخروية لإبن المؤقت المراكشي، العلم الثقافي، السنة 32، بتاريخ:29دجنبر2001م.

مؤدن عبد الرحيم، الرحلة المراكشية، أسئلة النوع/أسئلة العصر، العلم الثقافي، السنة 31، بتاريخ: 29دجنبر2000م.

كافان ماكسويل، الكلاوي آخر سادة الأطلس، ترجمة: عبد المنعم ماجدولين، جريدة الإتحاد الاشتراكي، العدد 6098، بتاريخ:21أبريل2000م.

غلاب عبد الكريم، ملامح الأدب العربي الحديث بالمغرب، مجلة آفاق، السنة الأولى، العدد الأول، يناير يبراير مارس:1963م، ص:13.